مازبـــا . . .

للأستاذ محمد محمد مصطفى

ليست قصة الصبي البولوني « مازبا » من نسج الخيال . فلا تزال حوادثها مصورة على جدران كنيسة « سانت ماري » في مدينة « جالاتز » برومانيا .

قالت الأميرة « أوجستا » لخادمها وهي تحاوره :

— إني لأعجب من أمر الصبي القائم بباب قصري لا يبرح مكانه منه إلا ليطوف طرفه بنوافذ غرفتي ، فإن عرضت لي حاجة خارج القصر علق بي نظره ما يرتد إلا إذا غبت في حشد الطريق .

فقال الخادم : إنه مازبا يا مولاتي

— ومن يكون مازبا ؟

— هو شريد غريب الأطوار طالما رقت له قلوب الناس ولكنه يمتنع عن أن يناله أحد بعطف أو إحسان إلا أجراً لخدمة يؤديها

— وما مقامه ببابي ؟

وأرتج على الخادم ولوى شدقيه بكلمات لم تدرك منها الأميرة شيئاً . وكانت لحظة هائلة على الخادم المسكين ، أيكذب على سيدته وما كذب في حياته قط . . . أم يقول الحق . . . وياله من حق . . .

أيقول لها إن هذا الشريد هائم بك قد تناهى كل جمال في دنياه إلى صورتك لا يقوم إلا بها ولا يغمض عينيه إلا عليها ؟ أيقول لها : إن قلبه لا يفتر عن الوجيب كلما خطرت أمامه خارجة من القصر أو عائدة إليه ؟ أيقول لها إنها سافرت إلى الريف أياماً قضاها البائس بين سعير وجده ولهيب حبه ؟ أيقول لها إن المدينة كلها تتندر بغرامه وشغفه ؟

وقال الخادم أخيراً :

— سليه يا مولاتي فهو أقدر مني على الجواب الصحيح

* * *

وخيل لمازبا أن الدهر قد مالأه وأن كل شيء في الوجود يبسم له حين دعاه الخادم للمثول بين يدي الأميرة ، وكان بذرع الأبهاء لا تأخذ عينه تحفة ، ولا يستوقف نظره أثاث . . . كان كل شيء يبدو في عينيه طبيعياً كأن له به عهداً . ولما أشار الخادم إلى غرفة الأميرة شحب لون الصبي قليلاً ولكنه واصل السير ، وقالت له الأميرة : أخلت رقعة الأرض من مكان يأويك فجئت تصوب إلي كل حين نظرة المتحين للشر ؟

— شر ! . . . إني لا أحب الشر ومع ذاك فأنا . . . ومن أنا حتى أملك للأميرة شراً ؟

وسمعت الأميرة ضجة خارج غرفتها فسألت الخادم عنها فقال :

— إنهن أتراب مولاتي أتين للسمر . فقالت : دعهن يدخلن

وحينما دخلن على الأميرة شدهن وفغرن أفواههن وصاحت إحداهن : يا لمعجزة الحب . . . لقد وصل العاشق الشريد إلى مخدع الأميرة . وقالت أخرى :

— بالله لنتركهما يتناجيان فنسمع نجواهما . . . يا للمنظر الفريد والحدث الفذ !

وعلت قهقهتهن والأميرة تنظر ولا تدرك شيئاً من حديثهن ثم قالت : إنه مازبا يا رفيقات . يبدو أنكن تعرفنه فصحن جميعاً :

— وهل في المدينة من لا يعرفه ؟

فقالت الأميرة : لقد كان يرسل إلي كلما صرت به نظرة أفاق فأوجست منه شراً . فقلن :

— كيف ! ألا تفرقين بين النظرات ؟

وأمرت الأميرة خادمها أن يطعمه ويكسوه وأضافت :

— ولكنك يا مازبا ستقيم بعيداً عن القصر فلا تعد إلى مكانك منه مرة أخرى

فقال الصبي : بالله يا مولاتي . . . دعيني . . . لا أريد طعاماً ولا رداء ، ولا تحولي بيني وبين مكاني فما في الأرض مكان أحب إلي منه ، وما وجودي به يضارك شيئاً

فرقت له نفس الأميرة وقالت : لك ذلك يا مازبا

وحينما هم بالسير قالت إحدى رفيقاتها :

— مسكين ! لقد شفه الهوى وأضناه الحب .

ودهشت الأميرة ونادته ثانية وقالت :

— أصحت يا مازبا . . . إنهن يقلن إنك عاشق مدنف . . . فمن ترى تلك السعيدة التي سلبتك قلبك ؟

وأخذت أذنا المسكين تتجاوب صدى ضحك الفتيات وقد سمر في مكانه لا ينبس ولا يطرف ، وطال صمته والفتيات ينظرن إليه ويضحكن . فقالت الأميرة :

— تكلم يا مازبا . . . من هي تلك السعيدة . . . أتكون بائعة

الزهور أم بنت بواية المنزل الواجه لقصرنا ؟

فقال الصبي : لا هذه ولا تلك

— فمن تكون إذاً ؟

— إنها فتاة كبدر السماء أنظر إليها ولا أطمع فى قربها . يغمرها الترف الذى نشأت فيه ، وتغمرنى الأحزان التى ولدت فى أحضانها . على أنه إذا كان ذلك بلاء بليت به فما أسعدنى بهذا البلاء ، وما أكثر جذل حين أرقب وجهها فى الليالى القمراء كأنها ملك هابط ، أو كأنما قد فرت من الجنان حوراء

وأدركت الأميرة من كلام الصبي وضحك أترابها وتدلله عيناه وخفق قلبه المتدارك أنها معشوقة ذلك الهزأة الشريد فانتفضت كمن مسها الخبل وصفعته صفعة طار لها صوابه ، وأمرت الخادم أن يربطه حافياً على ظهر فرس يطلقها إلى غير وجه فى براري الدانوب

وكان وجه مازبا إلى السماء ، والفرس تنهب به أرضاً عذراء لم تطأها قدما إنسان ، وظلت فى الفلاة أياماً ، ثم ظهر لعينيها العمران فاتجهت إليه مسرعة كأنما كانت تحس أن حملها لاغب وهنان . ولما اقتربت الفرس من مضرب قبيلة (ساشا) القوقازية اشتد عليها نباح الكلاب . وسرعان مارفع الخبر إلى زعيم القبيلة (دروفسكى) الذى انطلق يسائل مازبا عن قصته ، ولكن الصبي كان لاه عن لغطهم وأسئلتهم بما قدم إليه من حساء وشواء ، وكان لا يفتأ يسأل بين الحين عن فرسه وما قدم إليها من علف وماء .

وقال مازبا بعد ما طعم وروى : أشكر لكم أيها السادة هذا الطعام وهذا الكساء وأستودعكم الله . . . إلى اللقاء

فقال زعيم القبيلة : إلى أين يا مازبا ؟

— إلى أين ؟ حقاً إلى أين ؟ عفواً أيها الزعيم فإنى لا أعرف إلى أين أذهب . فقال دروفسكى :

— يا بنى . إن امرأتى عاقر ولم أعقب ولداً وقد أرسلك الله لى فلا تخفر ظنى فيك

— لك ذلك أيها الزعيم على ألا تسألنى عن ماضى لأنه قد تصرم وطواه الظلام .

وبدت طلائع الفجر ولما يرقأ لعين الأميرة دمع ، وطفقت تحدث نفسها : أى ذنب جناه الصبي لأميته على الصورة التى أوحاها لى غضبى ونزق . أحديث حبه السامى وتدلله بى . لقد أتيت أمراً إدّاً . وعاشت الأميرة ساهمة واجمة يروعها طيف الصبي يلاحقها فى الغدو والرواح

ولا نقول أن مازبا قد سلاها ، ولكنه طرحها فى زاوية معتمة من زوايا قلبه ، وراح ينسج عليها الزمن خيوط النسيان

وتحجرت عاطفته ، فوجه كل حبه إلى وطنه الجديد ، وتعلم الفروسية على فرسه وعلمها لشباب قبيلته ، وأكسبته فطنته ودرايته ومكانته من زعيم القبيلة مهابة كان يزيدها عزوفه عن النساء وبغضه لهن ، وكان الزعيم الكهل يفرك يديه سروراً كلما رأى مازبا جالساً على محفته يحكم بين الناس بالعدل ويصرف الأمور بعزم الشباب وحكمة الشيوخ . وحل موعد جباية الضرائب فى عام كان الناس فيه يمترون ، فجأرت القبائل بالشكوى قائلين : يا مازبا ، كن شفيعنا لدى بطرس الأكبر ليرفعها عنا . إنك بمواردنا عليم

ويأسى مازبا لبنى وطنه الجديد ولا يدرك فيم تنفق الأموال التى تأخذ منهم قسراً لتحشر فى خزائن بطرسبرج فيتصل بزعماء القبائل يحضهم على العصيان والإبقاء على أموالهم قائلاً فى حماسة :

— فليأت هذا البطرس هنا ليأخذ منا ضرائبه عنوة إن شاء . يا شباب القوزاق : أفيقوا من سورة الخمر وسحر النساء ، وهبوا لنشعل أوار المعركة لتظفروا بالحرية والمجد

وهكذا نفث مازبا فى روح القبائل جمراً من الوطنية يستعر ورغبة جامحة إلى خوض ميدان القتال . وكان بطرس الأكبر داهية أريب ، فأقام ليلة عيد الميلاد حفلاً هائلاً دعا إليه الملوك والأمراء من كل قطر ومصر ، واستدعى إليه مازبا وأمنه على نفسه ووطنه ووعده بالنظر فى رفع ضريبة الدولة على أن يظل القوزاق تحت حكم الروس

وكان القصر الإمبراطورى شملة تتوهج بين الدوح الباسق والرياض المزهرة ؛ وقد نشرت الصحاف مثقلة بالفذ الشهى من ألوان الطعام ، وقام وزير الخارجية بتقديم المدعوين إلى بعضهم ، فهؤلاء مندوبو فنلندا واستونيا والقابعون على الشراب فى البهو الخشبى حكام سيبيريا والقادمون علينا يامازبا أمراء وأميرات بولونيا

بولونيا ... وقبض مازبا على صدره كأن طعنة أصابته ؛ فذعر وزير الخارجية وقال : أبك شىء يا مازبا ؟

— لا ... لا ... إنه جرح قديم ... قديم جداً ولا أدرى كيف آلمنى الساعة

واقتربت أميرات بولونيا ، وكان أبرز ما فيهن جمالاً أوجستا وشخص مازبا إلى وجهها المتلألئ ، فانبعث عزام عشرون عاماً من قلبه كبركان ثار بعد طول رقاد ...

وعرفته أوجستا ، فجاءته على استحياء ، ومدت إليه يدها ،

وقد تضرج وجهها وخشع طرفها وانتحت به ناحية ، وأخذت تخالسه النظر ، وازدحمت الكلمات على شفتيها ثم قالت : كأني بك طفل الأمس يا مازبا ، لم تغير من معارفك الحدثان

— طفل الأمس ... إنه مات في براري الدانوب

— وقلبه وحبه ؟

— كلاهما معاً ...

— ولكني أرى بريق عيناك والتماعها بتلك المعاني الغامضة

— تلك أوهام ...

— إنك تجاهد غرامك يا مازبا ، ولقد لقيت قصاصي بما سهرته من ليال أذرف الدمع على ما قدمت يداي . فهل أنت مقيل لعثرتي؟

— ما كان لي أن أصفح عنك ولا أرى لك ذنباً

— ألا زلت تحمل لي موجدة ؟

— لا ... ولكني أوصدت قلبي دون النساء ، ثم أني على موعد مع القيصر ، فاستودعك الله ...

— مهلاً يا مازبا ...

ولكنه انسل بين الأضياف ، وحينما بعد عنها حدث نفسه :

كادت المرأة تصرعك يا مازبا ... أيها القلب الخائن ، لن أصغي لحديثك المعسول مرة أخرى ...

لقد عاهدت نفسي على خدمة وطني الذي أطعمني حين حرمتني هذه المرأة ، وكساني حين جردتني ، وآواني حين أطلقت بي فرساً تنهب بي البراري . فليكن جل تفكيري فيك ولك أيها الوطن أما أنت يا أوجستا ، فسأحاربك في قلبي حتى تموتي فيه

وانطلق في طريقه حتى مثل بين القيصر

وقال القيصر لمازبا : قد رفع إلينا قرار المالية فلم نجد بداً من استمرار الضرائب ، فهل تعدني بشرفك أن تقوم على جبايتها ؟

— لقد أقسمت لمواطني أنكم سترفعونها

فقال القيصر لمن حوله : اقبضوا على هذا السيد

وألقي مازبا في حجرة ببرج القصر تحوطه الأحراس ، واندلعت الثورة في القوزاق من أقصاها إلى أقصاها ، وأرسل بطرس الأكبر حملة لإخمادها فزادت النار اشتعالاً

وكان الليل قد لف الكون بغلالة سوداء ، والقصر ساكن حينما اعترض الأميرة أوجستا حارس البرج ، فأبرزت له أمر القيصر فتخلى الحارس عن الباب . وكان مازبا يقف هادئاً إلى نافذة البرج كأنما ينتظر أحداً أو كأنه واثق من نجدة القوزاق ، وقالت أوجستا :

— تبعت القيصر في كل مكان ولم أبرح مقصورته في الأوبرا حتى وقع على صك العفو عنك ، وقد وعدته أن تتسم لي على طاعته فيما آمرك به . فقال :

— لقد سمع القيصر أني لا أقسم على ذلك

— إن وطنك الجديد في حاجة إليك يا مازبا ، فقم الساعة وأخمد فتنته ، وانج بنفسك فإنك لا تدرك أي حتف سيلقاه إن بقيت هنا ليلة أخرى

واستقبل مازبا استقبال الفاتحين ، وكانت الفتيات ينثرن في طريقه الورود والرياحين ، وكان ألمه بادياً لما حل بقومه على يد جنود القيصر . فقابل قائد الحملة وطلب منه أن يرحل فوراً عن أراضي القوزاق ، وقال قائد الحملة إنه موفد من قبل القيصر وليس لأحد أن يأمره سواه . فقال مازبا : إذاً هي الحرب

وطلب القائد من بطرس الأكبر مدداً سريعاً فأرسل إليه جيوشاً جرارة لم تصمد لها جموع مازبا التي دافعت عن وطنها دفاع الأبطال وأحرقت عاصمة القوزاق وانتقم منهم جنود القيصر أبشع انتقام . وفر مازبا إلى سلطان تركيا عدو القيصر ليجيره ويمده بعتاد يستطيع بها مواصلة القتال ولكن السلطان اعتذر له ونصحه بإلقاء السلاح . وهكذا تخلى الحظ الباسم عن الزعيم الشريد فصوحت به الأيام من بلد إلى بلد يقلح الأرض لهذا ويحتطب لذاك

وكنت تراه بوجهه الكابد قابعاً في أسماله ومزقه يصطلي النار التي يضرمها في إحدى الخرائب فلا تصدق أنه ذاك الذي كان يغشى الولائم في أبهة الأمراء

وفي قرية (كييف) عثر حطاب في الغابة على جثته فأمر قسيس القرية بإلقائها في مقبرة المجهولين الغرباء

محمد محمد مصطفى
بإدارة مدرسة البوليس

إدارة البلديات — تنظيم

تقبل العطاءات لغاية ظهر ٤١/٣/٢٦
ببلديتي المنيا والمحلة الكبرى عن توريد
شعير وتبن . وتطلب الشروط من كل
منهما نظير مائة مليم ٧٨١٧

مطبعة الرسالة — ٨١ شارع السلطان حسين عابدين . القاهرة